وهم يسمعون أصوات الرصاص في حيهم:

أطفال حي «الحصبة» يستنجدون آباءهم لحمايتهم من الخوف والهلع

تحقيق/نجلاء علي الشيباني

.. معاناة الأنفس البريئة (الأطفال) الذين يموتون خوفاً حين يسمعون أصوات الأعيرة النارية وصوت الرصاص.. أطفال الحصبة الأبرياء خوف وقلق ورعب في نفوسهم الذين يدفعون ضريبة أخطاء ارتكبها الكبار ليقع فيها الصغار فقد عزيز أو منزل يستظل بظله ليجد نفسه في العراء أو لاجئ في منزل أحد الأقارب هروبا من صوت الرصاص الذي يكاد يصم اذانهم ويروع قلوبهم ،، تضيع طفولتهم وتزداد معاناتهم خوف مزمن من الأحداث والاشخاص يقابلها الطفل بالبكاء والاكتئاب الشديد.

فيما أكد المختصون أن أخطر آثار صوت الرصاص على الأطفال هو ما يظهر بشكل ملموس لاحقا جيل كامل من الأطفال سيكبر من ينجو منهم وهو يعاني من مشاكل نفسية.

فماذا فعلت أحداث الحصبة بأطفالنا؟ وماذا نفعل لهم؟ هذا ما سنحاول معالجته من خلال هذا التحقيق إليكم الحصيلة:

تعتبر الصدمات التي يتعرض لها الطفل بفعل الإنسان أقسى مما قد يتعرض له من جراء الكوارث الطبيعية وأكثر رسوخا بالذاكرة ويزداد الأمر صعوبة إذا تكررت هذه الصدمات لتتراكم فترات متقاربة.

الطفل علي يحيى الذي يبلغ من العمر ٦ سنوات ولديه قدرات استيعابية تفوق سنه اعتبرته عائلته من الأطفال الشجعان الذين لا يخافون من اطلاق النار ولا من صوت الرصاص والقذائف وكون بلادنا تنعم بالأمن والاستقرار ولا نسمع صوت الرصاص فيها خاصة بعد قانانون منع حمل السلاح ظل الصغار والكبار في أمان وبعيدين عن أية مخاوف .. كان الطفل يلعب بداخل منزله وهو يقود دراجته الجديدة التي اشتراها له والده وهو سعيد بها وما أن تقدم ناحية الباب حتى سمع صوت اطلاق النار كان الصوت مرتفعا جدا فهو قادم من جبل نقم فر الطفل علي باتجاه والدته وهو يصرخ وسرعان ما ضمته أمه التي استغربت بدورها حجم الخوف الذي بلغ ولدها الصغير من جراء هذه الأصوات .. رغم أنها كانت تخبر ولدها بأن هناك عرساً في الحي وسوف يطلق أهل العريس الألعاب النارية .. وجدت طفلها يقول: حرب يا أمي أين نهرب سوف نموت .. حاولت تأكيد فكرة الأعراس والألعاب النارية في ذهنه لكنه لم يصدقها .. وظل خائفا ورفض في اليوم التالي الخروج واللعب في الحي خوفا من أصوات الرصاص.

وها هي الطفلة شهد عاطف تسمع أصوات اطلاق النار وتهرع لوالديها صارخة انقذيني يا أمي لقد أتت المظاهرات هنا وسوف نموت كما في التلفاز مظاهرات والحرب واستمرت تصرخ وتبكي ووجد والديها صعوبة في اسكاتها فالكل في الحي والجيران يتحدثون عن اطلاق نار التي سوف تحدث في بلادنا أمام الأطفال ولا يدركون أن الأطفال يخافون هذه الأقاويل تؤثر على نفسياتهم مستقبلا.

أما الطفلة ولاء الشرعبي فضلت البقاء في حضن والدتها من الخروج خارج المنزل، ولاء عمرها ٥ سنوات كانت تشاهد مع والديها التقارير الأخبارية التي تقدمها القنوات عن أحداث اليمن كانت تشاهد الأموات والجرحى دون معرفة السبب وراء ذلك كل ما استطاع عقلها الصغير استيعابه هو أن الحرب وراء هؤلاء الأموات وسفك الدماء.

ولهذا تظل ولاء تصرخ وتبكي إذا سمعت صوت رصاص أو ألعاباً نارية أو حتى طرق باب منزلها أو طرقات خزان الماء .. ولهذا فهي خائفة جدا طوال اليوم من صوت اطلاق رصاص وتظل ملتصقة بوالدتها ظنا أنها سوف تحميها في حالة حدوث حرب حتى إنها ترفض الخروج مع والدها.

الأطفال الكبار

هذا هو حال الأطفال الأصغر سناً في الحصبة وكيف بالنسبة للأطفال الأكبر سنا الذين يتطلب الأمر مناقشتهم من قبل الأسرة حتى يتضح لديهم الأمر .. محمود طفل عمره ١١ عاما دائم السؤال عن حال البلاد وهل سوف يحدث بها حرب وبمجرد سماع صوت اطلاق نار فإنه يسارع إلى المنزل ووجهه يملؤه الخوف والهلع .. ويسأل والديه إذا حدث اطلاق نار فماذا سوف نعمل وأين سوف نذهب وهل سوف تطالنا الدبابات والمدافع وهل سوف نصاب، أسألة كثيرة يصعب الإجابة عليها من قبل أبواه فهو بحاجة إلى فترات طويلة لاقناعه بأن الحرب لم تقم في بلادنا ولا داعي للخوف؟ كيف ذلك وهو يسمع ويشاهد آثار حرب قائمة في حي الحصبة هذا ما قاله أبواه.

فيما يلح محمد باسل طفل عمره ٨ سنوات على أبويه مغادرة صنعاء والذهاب إلى القرية أو تعز أو الحديدة أو أية محافظة بعيدة عن صوت الرصاص واطلاق النار التي تخيفه جدا فهو لا يريد أن يصاب وتخرج منه الدماء كما يشاهد في التلفاز ويظل يبكي ويصرخ راجيا من والديه الذهاب إلى القرية وترك صنعاء لأن فيها حرب.

هكذا هو حال الأطفال في حي الحصبة خوفا وبكاء وقلقاً من صوت الرصاص والقذائف فخوفهم كان أعظم فالقصف والدمار من حولهم ولا مجال للأسر من خلق الأكاذيب وتصوير الرصاص بالألعاب النارية الناتجةعن الأصوات والاحتفالات الوطنية.

آباء يعانون

قد يسهل الحديث عن الآثار التي تصيب الأطفال من جراء أصوات الرصاص سواء عايشوها أو شاهدوها لكن تجارب الآباء والأمهات مع هؤلاء الأطفال هي التحدي الذي تواجهه كل أسرة .. رب الأسرة عبدالقادر الجندبي يقول: من السهل على الآباء والأمهات أن لا يدعوا أطفالهم وهم يعيشون التجربة الحية وماذا تقول الأم لطفلها في الحصبة عندما يرتج بيتها من القصف وينهار البيت المجاور ويرحل ويجرح زملاء وأصدقاء أطفالنا الذين يسألون عنهم .. عبدالقادر من سكان الحصبة وأطفاله شاهدوا المنازل تدمر أثناء القصف وعايشوا الواقع الأكثر تعقيدا من كل نظريات لتحليل والتنظير وخلق الأكاذيب لهم.

هدى أم تسكن في حي قريب من مبنى اليمنية في العاصمة صنعاء عاشت هي وأطفالها تجربة فريدة من نوعها عندما كان أطفالها يسمعون أصوات اطلاق النار والمدافع في الحصبة كانت تخبرهم أنها أصوات الألعاب النارية والمفرقعات التي اعتادوا سماعها أثناء الأعراس والاحتفالات بالأعياد الوطنية.

لا تجد أم أيمن سوى التواصل مع أبنائها الصغار واقناعهم بأنهم في مكان آمن أو أن القصف وضرب النار والرصاص لن يطالهم وأن الأهل متخذين كافة الاحتياطات لحمايتهم والسماح لهم باللعب والخروج خارج المنزل وعدم البعد كثيرا عنها فهي تستخدم وكل الطرق والسبل الممكنة لاقناع أطفالها بأنها ووالدهم وفرا لهم المنزل كل سبل الحماية وليس هناك داع للخوف أو القلق .. وبأن النشرات الأخبارية تأتي بالأكاذيب واليمن ليس بها حرب فالحرب هناك في فلسطين ولبنان وهما بعيدتان عنا تماما وليس هناك داع لزرع الرعب في نفوسهم.

ولي أمر يسكن في الحصبة عبدالوهاب الذي خسر محله وبيته من جراء القصف يقول: كل ذنبي أن سكنت بالقرب من منزل بيت عبدالله بن حسين الأحمر تعرض منزلي للقصف أمام عيني أنا وولدي الصغير وخسرت محلي الذي يقع بجوار المنزل والآن سوف أخسر ولدي الذي شاهد القصف وأصيب بالصفار وهو الآن في المستشفى السعودي الألماني تحت الملاحظة ولا أعرف ماذا أفعل ليعود إليّ ولدي مالي سوف يعوض لكن ولدي (لا) متى يوقفون اطلاق النار رحمة بالأطفال والمساكين الذين لا ذنب لهم.

فوبيا الأطفال

يركز علماء النفس والتربويون على الصدمة كأكثر الآثار السلبية الناجمة عن سماع الأطفال وخوفهم من أصوات الرصاص والقذائف وأصوات المدافع .. فغالبا ما يصاحب الصدمة خوفاً مزمناً (فوبيا) من الأحداث والاشخاص والأشياء التي ترافق وجودهامع هذه الأصوات الأعيرة النارية مثل أصوات الرصاص والقذائف والجنود وصوت الطائرات ويقابلها الطفل بالبكاء أو الغضب أو الاكتئاب ماذا كانت الصدمة ناجمة عن مشاهدة الطفل لحالات وفاة مروعة أو منازل مدمرة أو موت أقارب له فإنها يمكن أن تؤثر على قدراته العقلية وتتسبب الصدمة في معاناة الأطفال من مشكلات عصبية ونفسية ممتدة مثل الحركات اللاإرادية وقلة الشهية للطعام والابتعاد عن الناس والميل للتشاؤم واليأس وسرعة ضربات القلب في بعض المواقف.

وتفجر مخاوف اطلاق الرصاص لدى الأطفال لا سيما الصغار منهم أزمة هوية حادة فالطفل لا يعرف لمن ينتمي ولماذا يتعرض لهذه الآلام أما الأطفال الأكبر والفتيات فيجدون أنفسهم وقد أصبحوا في موقف الجندية عليهم الدفاع عن أنفسهم وذويهم ولو عرضهم ذلك إلى الخطر وحتى إذا لم يفعل الأطفال ذلك فإنهم يجدون أنفسهم في حالة من التشرد والفقر تفوق قدرتهم الاستيعابية خصوصا على التعبير الجيد عن المشاعر والرغبات مما يغذي مشاعر دفينة تظهر في مراحل متقدمة في أعمارهم في صور عصبية وانطواء وتخلف دراسي وغيرها من الأعراض.

معاناة طويلة الأمد

ومن جهته يرى علماء الاجتماع أن أخطر آثار أصوات الرصاص والمدافع على الأطفال ليس ما يظهر منهم وقت الحدث بل ما يظهر لاحقا في جيل كامل ممن نجوا من الأحداث وأصوات الرصاص والقذائف وقد حملوا معهم مشكلات نفسية واجتماعية لا حصر لها تتوقف خطورتها على قدرة الأهل على مساعدة أطفالهم في تجاوز مشاهد المظاهرات فمعاناة الأطفال من أصوات القذائف والرصاص تتوقف بتوقف المدافع بل تصاحبهم إلى مراحل متقدمة من أعمارهم.

ويضيف علماء الاجتماع بأن ما يشاهده الأطفال بين سن الثالثة والسابعة من أصوات الرصاص وآثارها من دمار وما شابه ذلك تشكل شخصيته وتؤثر في سلوكه ولذلك فإن مشاهد المنازل المهدمة والدماء في الشوارع يختزنها الطفل في عقله الباطن فتفقده طفولته وعفويته.

فالآثار السلبية لتلك المشاهد لا تنتهي بنهاية مرحلة الطفولة بل تشكل منظارا يرى الطفل العالم من خلاله ولأن الأطفال لا يفهمون مبررات المظاهرات واطلاق الرصاص كما يفعل الكبار فإنه لا سبيل أمامهم للتعبير عن تأثرهم بما يعانون وبما يعايشون ويرون من تلك الحروب إلا الانطواء والتوجس أو التبلد أو العدوانية .. في مايؤكد المختصون بأن التأثير السلبي لأجواء اطلاق الرصاص على الأطفال يكاد يكون أمرا مسلما لكن الجانب الآخر هناك من يرى في تلك الأجواء شيئا من الإيجابية إذ يشير بعض التربويين إلى أن الجيل الذي يعيش تلك الأجواء سيكون أكثر قدرة على التحمل شرط أن يكون وراء هؤلاء الصغار أسر واعية تشرح لهم ما وراء مشاهد الحرب التي يعايشونها أو يشاهدونها ولذلك من المهم ألا يجلس الطفل بمفرده أمام نشرات الأخبار في التلفاز بل لا بد من وجود بالغ بجواره يشرح له دلالة هذا الواقع على أطفالهم حتى أنهم أصبحوا أطفالا بلا طفولة وأصبحنا نرى مشاهد الأطفال أمام الدبابات والمدافع في مثل هذه الأجواء لا يصبح هم الآباء والأمهات حماية الأطفال من مشاهدة العنف والموت بل حمايتهم من الموت نفسه وبهذا يواجه الأهل تحديات جمة من التعامل مع أطفالهم أثناء الحروب ليس في البلد التي تدور فيها الحروب فحسب بل البلدان التي تتابعها على شاشات التلفاز ففي كل الأحوال يحتاج الأطفال إلى معاملة خاصة من ذويهم سواء كانوا ضحايا حرب أو مجرد متابعين لها .. وينصح المختصون النفسيون وعلماء الاجتماع للحد من خوف الأطفال أثناء الحرب أولا يجب على الآباء والأمهات عند تعرض الطفل لظروف مروعة في الحروب هو أن يحيطوه بالاطمئنان ولا يتركوه دون دعم نفسي وأن يطمئنوه بأن كل شيء سيكون على ما يرام مع تشتيت فكره عن الحدث المروع.

أما الأطفال الأكبر سنا فيمكن مناقشة ما يجري معهم واقناعهم بأنهم في مكان آمن وأن القصف لن يطالهم مع عدم منعهم من البكاء والسؤال عما يجري ويمكن لرب الأسرة في منطقة الحروب أن يجمع أسرته صغارا وكبارا من أجل قراءة القرآن والدعاء مع زرع الإحساس بداخل الطفل بأن القدرة الإلهية قادرة على كل شيء.

وازع ديني

ويبقى الجانب الروحي أو الديني هو الأهم حيث يكفل للإنسان الاطمئنان ويزرع الإحساس بداخل الطفل عن وجود قدرة إلهية عظيمة قادرة على نجدته في هذا الوقت من أي شيء مهما كان قويا ومروعا لمساعدته على تجاوز حالة العجز والخوف التي ترافقه في بقية حياته وتساهم في استعادته لثقته النفسية وبالعالم من حوله وعدم فقدان الأمل وأن قوة الله فوق كل قوة وكيف أنه سبحانه وتعالى نجى إبراهيم عليه السلام من النار وموسى من الغرق ومحمد صلى الله عليه وآله سلم من كيد قريش وهكذا.

- أولياء الأمور: نفشل في التعامل مع أطفالنا .. ونخشى عليهم من الخوف
- علماء النفس: خوف الأطفال من أصوات الرصاص يؤثر على قدراتهم العقلية والنفسية والصحية
- علم الاجتماع: معاناة الأطفال لاتتوقف بتوقف أصوات الرصاص وإنما تصاحبهم إلى مرحلة متقدمة من أعمارهم
- رأي الدين: زرع الإحساس بداخل الطفل عن وجود قدرة إلهية قادرة على نجدته من الخوف